

محطات مضيئة

على هامش المؤتمر القومي الاول (للسلام و الصحة النفسية)، و الذى عقدته جمعية أخصائى الطب النفسى السودانية فى الخرطوم فى الفترة ما بين 4-6 مارس الماضى، حملنى قطار الرحلة الى محطات مضيئة اختصرت ثلاثة عقود من سنوات الاغتراب فى ثلاثة أيام بعد ما تم الافتتاح فى الفندق الكبير و الذى ضم اجتماع الطب النفسى الافريقى الاول فى عام 1965 و كانت قدماى آنذاك فى اول عتبات السلم الوظيفى.

و التقيت فى هذه المرة بمجموعة الاطباء النفسانيين السودانيين المغتربين بالخارج و الداخل فى المناطق الريفية، اذ قطعوا نفس المسافة بالطائرة أو الناقله داخل الوطن القارة يشدهم الشوق الى اللقاء التاريخى مع الاخوة القدامى. و لفت نظرى الحضور المشهود و الفعال و المؤثر و المؤثر الى نقلة نوعية فى ثقافة المجتمع ونقطة انعطافية فى حضارة الامة و هى كثافة العنصر النسائى فى المؤتمر ليس فقط فى نسبة الحضور او قدر المشاركة أو درجة الفعالية، و انما فى قوة الإستحواذ على حركة المناشط العلمية و الاجتماعية خاصة فى تصور فرد ترك البلاد فى وقت لم تكن فيه متدربة واحدة فى خريطة الطب النفسى فى البلاد عندما يلاقى متخصصات فى اعلى عتبات السلم الوظيفى مهنيا و اكبر درجات التخصص الطبى علميا وفى شتى مجالات الصحة النفسية خاصة فى مجالات علم النفس المتعددة.

عود على بدء فهى تحولات جوهرية و ضرورة حضارية لا بد ان نستبشر بها و نؤطر لها حتى لا تغفلت من عقالها فتصبح النعمة نغمة أشبه بالطوفان فى حياة الانسان ولكنها كانت من اكثر المحطات المضيئة التى تستحق الاهتمام و التوقف عندها فى مسيرة الرحلة الاسطورية فى رحاب المؤتمر العامر بالاضاءات.

وقد تمت فعاليات المؤتمر فى قاعة مركز الشهيد الزبير، وكانت الاستضافة فى مستوى الوفود الزائرة كرما و حفاوة. و قد شعر الاخوة القادمون من الخارج "المهجر" - لو صح التعبير-، أنهم أهل الضيافة المستضافون فى بيت رجل واحد وناقشوا فى هذه اللقاءات الجانبية أضعاف ما ورد فى مداولات المؤتمر علما بان بعض هذه القضايا كانت من الفئة التى يصدق فيها القول (ما كل ما يعرف يقال) ولكنه قيل بأمانة وتجرد يبعث على الفخر و الاعتزاز.

و فى المساء تمت دعوتنا الى حفل عشاء فى نادى الضباط بضاحية "برى" و قد كان مضيفنا اللواء أركان حرب عبد الباقي البشرى و قد أفاض على المدعوين من كرم الضيافة و روح الترحاب ما جعل كل منا يردد سرا فى دخيلته:

برغم قساوة المحن

عزيزأنت يا وطنى

و يضيف بعضنا علنا:

و أهلى وان ضنوا على كرام

بلادى و ان جارت على عزيزة

فنزلنا أهلاً و حللنا سهلاً و قرأنا شعراً و تلونا نثراً و قصصنا اجمل القصص و بعد تناول العشاء الذى ذخر بما لذ و طاب فى ديار الاحباب أخذونا الى الجانب الاخر من النادى لمشاهدة احدى فعاليات (الخرطوم عاصمة الثقافة العربية)، و كانت مجموعة من الأغنيات السودانية مع فرقة الشقيقة (جيبوتى)، و كان هذا المزيج اشارة معبرة عن مضمون الزيارة فى الزمان و المكان.

و فى اليوم الاخير كانت دعوة عشاء فى (النادى القبطى) بالخرطوم و الذى استقبلنا خارج الاسوار ليؤكد فرحته بلقاء الزوار و استكمل هذه الفرحة بالفرقة القومية و التى قدمت لوحة فنية غنائية لكل ألوان الطيف الثقافى القومى فى جهات السودان الاربع. و كانت لفحة بارعة تتم عن وعى عميق بالتحويلات الجوهرية التى تجرى على واقع المجتمع السودانى فى جو مفعم بالتفاؤل، منفتح لاستقبال التغيير الحضارى و السلمى و الذى يستوعب كل معطيات الالفية الثالثة بروح الفاعل و المتفاعل لا الغافل او المتغافل.

و قد كان مسك الختام حضور مندوب أمانة جهاز المغتربين و الذى جاء لإنجاز معاملات المشاركين من الخارج بأسلوب حضارى منقطع النظير عكس جانباً مشرقاً من شفافية القائمين على شأن هذا الجهاز مما هم مخيروا فيه، و قد كانت امانى أكثر الناس تفاؤلاً ان تلاحقهم المطالبات داخل القاعة بدل الذهاب الى صالات الجهاز المتعددة و ذلك فى أقصى حالات الافراط فى التفاؤل و لم يذهب بهم الحلم درجة استلام تأشيرة الخروج داخل اروقة المؤتمر ولكن قدر الله و ما شاء فعل.

و من المؤسف لى - و ليس بالضرورة لى آخرين -، أن كان معظم القادمين من المهجر يحملون جوازات سفر أجنبية دفعتهم إليها ظروف طارئة يستظلون بها من هجير المطاردة فى بوابات المطار تعفيهم من بعض الملاحقات و لكنها لا تسقط عنهم ضريبة الوطن و التى لا يتبرأون منها و لو فى دفع رسوم التسجيل للمؤتمر بالدولار الأمريكى.

عود على بدءو حتى لا يتسع الخرق على الراقق فى حساسية هذا الموضوع لابد من ان أذكر أننى مسكون بهاجس انتشار الطاعون الحديث الذى بدأ يجتاح كل شرائح المجتمع فى البحث عن الجواز الاجنبى للخروج من عنق الزجاجة الملئ بالدم، حتى داخل أسرتى، و كأننا قد يئسنا من مستقبل الإصلاح فى تركيبة هذا الوطن و هذا ما يبعث على الاسى و يحز فى النفس و للحديث صلة فى وقت لاحق ان شاء الله.

استلمت جوازى و غادرت مباشرة الى أبوظبى لأسافر فى اليوم التالى الى لندن لحضور مؤتمر علمى آخر فى 10-14 مارس. و تشاء الصدفة ان يحضر المؤتمر بعض الاخوة السودانيين المغتربين و كان عددهم اكبر من الذين شاركوا فى مؤتمر الخرطوم و بعضهم لم يحضر الى السودان منذ سنوات طويلة ولم يصدقوا القليل من الكثير الذى نقلناه لهم عن المحطات المضيئة فى رحلة الخرطوم و اكثرهم يحمل الجوازات الاجنبية خاصة فئة الشباب منهم و كانهم يقولون:

لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيق

و فى نهاية المؤتمر سافرت الى مدينة (ابسوينش) خارج لندن لزيارة ابنى الدكتور نادر و اسرته. و التقيت بالزملاء الدكتور محمد حسن القدال و الدكتور محمد عثمان سراج و الدكتور كمال حسن و آخرين وكلهم

يعملون اخصائيين فى الطب النفسى فى نفس المدينة و نفس المستشفى عدا التخصصات، الاخرى و قس على ذلك التعداد حصيلة الداخل مفقود و الخارج مولود ... فالى متى؟؟

أمل ان يكون الى أجل مسمى يتحققون فيه من صدق الروايات التى تترد عما يدور فى الساحة السودانية من حوارات هادفة و منتديات متشعبة بالرغبة فى التغيير الى الأفضل فى كل شئ و أول البدايات الصورة التى تم بها هذا المؤتمر فى الخرطوم.. و الغيث أوله قطر فينهمر. و لن يغير الله بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم.

و أخيرا عدت الى مدينة أبوظبى لأكتب انطباعاتى عن بعض المحطات المضيئة الكثيرة فى قطار الرحلة القصيرة و الفريدة فى نوعها بكل المقاييس التى تواضعنا عليها خلال سنوات الإغتراب و أعتذر عن التقصير فى اعطاء كل ذى حق حقه فى هذه العجالة.

و من سار على الدرب وصل و كيف تكونون يولى عليكم...

ولنا عودة باذن الله

الدكتور الزين عباس عماره - أبوظبى